

إميل دوركايم: 13/04/1858 – 1917

يعد من الرواد المؤسسين لعلم الاجتماع، وقد ساهم في تأسيسه إلى جانب رواد المدرسة الوضعية الفرنسية لعلم الاجتماع، ولد سنة 1858 في مدينة إيبينال بفرنسا، من أسرة يهودية، نال شهادة الدكتوراه في موضوع تقسيم العمل الاجتماعي الذي نشر عام 1893، ومن أهم مؤلفاته؛ قواعد المنهج في علم الاجتماع، والانتحار، والتصنيف البدائي والأشكال الأولية للحياة الدينية.

لقد أسس دوركايم دراساته وأبحاثه على المنهجية الوضعية التي تعني دراسة الظواهر والوقائع الاجتماعية الموجودة مبينا المنهج العلمي المتبع في دراسة الظواهر الطبيعية.

وقد تأثر دوركايم بالمجتمع الفرنسي، حيث الحرية الفكرية والمعرفة الواسعة باطلاعه عن أفكار فلاسفة الأنوار، وبعض الألمانيين، وظل التضامن يؤثر في فكره الاجتماعي الداعي إلى روح التضامن بدلا من الصراع المتصل.

إسهامات إميل دوركايم:

تكمن الأهمية العلمية لدوركايم في محاولته صياغة قواعد علمية تكون منطلقا لعلم جديد اسمه السوسيولوجيا. لقد انطلق من مفهوم الوعي الجماعي في تفسير الوقائع الاجتماعية، ورفض التفسير النفسي لها، فهو يرفض مثلا تفسير ظاهراتي الجريمة والانتحار أي بالقيم والمثل. وعلى ضرورة فهم الظواهر الاجتماعية كأشياء على أساس الملاحظة والاختبار. أي على أساس فهمها من الخارج وليس من الداخل وذلك لرفضه ربط هذه الظواهر أو الوقائع الاجتماعية بالوقائع الفردية على أساس التفاعل لكون الأولى تتخطى الثانية مبعدا المفاهيم المسبقة أو ما هو مثالي بهدف التحليل والتفسير العلمي، وبناء على أسس موضوعية.

سنلقي الضوء على القواعد المعتمدة من أجل بناء المنهج السوسيولوجي هذه القواعد متضمنة في جميع كتبه لكنها موجودة بدقة أكثر في كتابه قواعد المنهج السوسيولوجي، إذن استنادا إلى ذلك سوف تتم معالجة المسائل النظرية والتطبيقية المتعلقة بالمنهج انطلاقا منه.

الواقعة الاجتماعية: الظاهرة الاجتماعية

الواقعة الاجتماعية والواقعة الفردية من أهم الموضوعات في الدراسة الاجتماعية لارتباط قيام علم الاجتماع بها واستقلاليته، وتكمن أهميتها في وضع علم الاجتماع على قواعد ثابتة.

حدد دوركايم الموضوع الخاص بدراسة الوقائع الاجتماعية ليميزه عن باقي العلوم الأخرى. وعن الظواهر التي تتناولها هذه العلوم كما تتميز عن الظواهر الفردية والنفسية لأن وظائفها تختلف عن الوظائف التي يقوم بها الفرد لوحده. فإذا كان المجتمع يشكل المادة الأساسية للظواهر الاجتماعية فإن الفرد يشكل المادة الأساسية للظواهر الفردية والظواهر الاجتماعية تشكل الميدان الخاص لعلم الاجتماع، لذلك فالظواهر الاجتماعية تتمثل بانعكاساتها أو بتجسيدها الفردية لذلك أبعدنا دوركايم عن الأفكار الموجودة في وعي كل فرد وعن الحركة التي يقوم بها الأفراد وبالتالي فهي ليست ظواهر اجتماعية، فالمعتقدات والاتجاهات وممارسات المجموعة هي ما يشكل الوقائع الاجتماعية. وهذه الأخيرة توجد على نحو مستقل عن الأشكال الفردية التي تأخذها في حال انتشارها.

أهم مؤلفاته: تقسيم العمل- قواعد المنهج الاجتماعي- الانتحار – دراسة اجتماعية – الأشكال الأولى للحياة الدينية.

يبدو من خلال كتابات دروكايم خصوصا قواعد المنهج السوسيولوجي ان السوسيولوجيا مستقلة عن المعارف والعلوم الأخرى وعلى ذلك الأساس وضع الأسس التي ينبغي ان يرسى عليها علم الاجتماع أهمها هو دراسة الظواهر الاجتماعية باعتبارها أشياء او موضوعات مادية يجب أن تخضع للملاحظة الخارجية، وبهذا الصدد يقول دوركايم: أن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء ويجب أن تدرس كأشياء. لأن كل ما يعطي لنا أن يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عدد الأشياء.. وإذا، يجب أن ندرس الظواهر الاجتماعية في ذاتها في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يمثلونها فكريا، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة عنا، إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته وبدون استثناء¹.

أما القاعدة الثانية فتتطلب تخلص عالم الاجتماع من كل الأفكار المسبقة وأن يشك شكا منهجيا بغية الوصول إلى اليقين الديكارتي.

القاعدة الثالثة دراسة الوقائع المجتمعية التي تشترك في خواص معينة دراسة علمية موضوعية، من خلال الملاحظة والتصنيف والتفسير، القاعدة الرابعة دراسة الظواهر الاجتماعية التي تتميز بالتكرار والاطراء والعمومية والجبرية والإلزام، بملاحظتها من الخارج بعيدا عن العوامل الفردية والنفسية، القاعدة الخامسة هي التمييز بين الظواهر السلبية والظواهر المعتلة، القاعدة السادسة هي تصنيف المجتمعات من حيث البنية والوظيفة.

موضوع علم الاجتماع ومدركه:

كيف يعرف دوركايم الظاهرة الاجتماعية؟

أشرنا آنفا إلى ان الموضوع الأساسي الذي يهتم علم الاجتماع بدراسته هو "المجتمع" وبما أن العناصر الجوهرية لحياة (المجتمعات)، على ظهر الأرض كانت دائما هي هي، ونماذج السلوك الإنساني متشابهة ومشاركة في مظاهرها العامة، وإن اختلفت أشكالها وملامحها، فقد كان من الممكن أن تلاحظ، وتوصف، وتحلل، وتفسر أي أن تدرس دراسة

¹ - Durkheim, (1988-p103-104), les regles de la méthode sociologique ; 1988 , Ed , Flammarion.

علمية، ولذلك أطلق علماء الاجتماع الغربيون على موضوع علم الاجتماع عبارة " الظاهرة الاجتماعية" بينما سماها ابن خلدون بالواقعة الاجتماعية.

وعرفت الظاهرة أو الواقعة الاجتماعية بأنها: " نمط في السلوك، ثابت أو متغير، يمكن أن يباشر نوعا من الضغط الخارجي على الأفراد"، أو هي " كل سلوك يقدم في المجتمع بأسره، وله وجود مستقل عن الصورة التي يشكل بها في الحالات الفردية.

ولا يقتصر مدلول الظاهرة على نماذج السلوك السلبية في حياة المجتمعات أي على مشاكلها الاجتماعية، كالإجرام، وانحراف الأحداث، والفقر والبطالة والبغاء، والحروب والصراعات المختلفة، وغيرها، كما اعتقد ذلك بعض الباحثين الاجتماعيين، الذين حصروا علم الاجتماع في دراسة المشاكل الاجتماعية، والبحث عن أسبابها وطرق علاجها، بل هي تشمل حتى نماذج السلوك السوية الاعتيادية للحياة الاجتماعية.

وتتميز الظاهرة الاجتماعية بأنها:

1-إنسانية: أي خاصة بالإنسان الذي هو الكائن الوحيد الذي ميزه الله بالقدرة على إنشاء العلاقات الاجتماعية عن طريق الفكر والعقل بخلاف بعض مظاهر التنظيم الجماعية التي نلاحظها في بعض الحيوانات لأنها تصدر بدافع من الغريزة فقط.

2-إلزامية: أي ان الفرد يجد نفسه ملزما باتباعها داخل الجماعة التي أقرتها، كقيمة خلقية أو فنية، أو كعادة أو تقليد محترم، بحيث يتعرض من يخالفه لاستنكار المجتمع أو سخريته، وهذا لا يمنع قيام زعماء ومصلحين ضدها، إذا كانت مضرّة بالمجتمع.

3-عمومية: لأنها تهم عددا كبيرا من الأفراد الذين يشتركون في ممارستها، وتكرر لمحة طويلة من الزمن، حيث تظهر بصورة واحدة تقريبا وهذا بخلاف الظاهرة النفسية التي تختص بسلوك فرد واحد معينة في ظروف معينة.

4-شينية: أي أنها تدرس وتؤخذ كشيء، فلها إذن وجود مستقل عن الأفراد، لأنها توجد خارج شهوره، وندخل في إطار نماذج السلوك التي يمارسها المجتمع انطلاقا من القيم والقواعد التي حددها العرف أو الدين أو القانون.

5- مكتسبة: أن يكتسبها الفرد من المجتمع نتيجة استقرار أسلوب العلاقات الاجتماعية، طبق نماذج معينة تلقائية، وبايحاء من العقل الجماعي الذي ينشأ من تفاعل الأفراد.

6-ذات تاريخ: يرتبط بنشأتها وتطورها قد يزيد أحيانا على بضع سنين، كشكل بعض الأزياء مثلا، وقد يمتد لآلاف السنين، كنظام الأسرة مثلا، وهذا يعني أن الظاهرة سابقة في وجودها على الفرد، الذي يأتي لتعلمها ويمارسها.

7- متغيرة: والتغير من الصفات الملازمة للظاهرة، التي تتعرض للتغير تحت تأثير الظروف التي يمر بها المجتمع ويزداد هذا التغير اتساعا كلما طال تاريخ الظاهرة.

8-متفاعلة: أي مع غيرها من الظواهر ولذلك لا يمكن دراستها منفصلة عن غيرها، فنظام الأسرة مثر متأثرا بالظواهر الدينية من جهة وبالظواهر الاقتصادية من جهة أخرى، وكلاهما متأثر بالظواهر السياسية وهكذا.

9- معقدة: لأنها نتيجة عوامل متعددة، مثال ذلك الجريمة وبسبب هذا التعقل ، والتفاعل والتغير، كانت دراستها أصعب من دراسة الظاهرة الطبيعية.

10-نسبية: أي انها تختلف شكلا وصورة وحجما باختلاف الزمان والمكان كشكل التحية، وشكل تقاليد الخطبة أو الزواج.

وبالرغم من هذه الخصائص التي حددت بها الظاهرة الاجتماعية فإن بعض الاجتماعيين الأمريكيين يعتبر هذه العبارة فضفاضة جدا ويفضل عليها عبارة "العلاقات الإنسانية" ذلك أن تجاربنا اليومية في العلاقات الإنسانية مع أسرنا وأصدقائنا وأعدائنا، ومع الأجانب تؤلف العادة الأساسية لعلم الاجتماع.

أعطى دوركايم تعريفات كثيرة للظاهرة الاجتماعية فهو تارة يعرفها بطرق مختلفة من التصرف والتفكير والشعور وتارة أخرى من خلال صفة القسر أي طرق التفكير والتصرف لها صفة الأمر والقسر معروفة من الخارج سواء أراد الفرد ذلك أم لا. فأفكارنا وميولاتنا واتجاهاتنا لا نشكلها نحن بل تأتينا من الخارج فهي بذلك لم تدخل في الأقسر فهي تعتبر ظاهرة لأنها قسرية .

وفي تعريف آخر، يحددها من خلال خاصية الانتشار داخل المجموعة وللتأكيد على صفتي القسر والاجتماعي كخاصيتين أساسيتين للظاهرة الاجتماعية يقول باختلاف المشاعر الجماعية عن الفردية، (اختلاف شعورنا عندما نكون في جماعة عن تفكيرنا لوحدنا).

ولتأكيد ذلك يكفي ملاحظة نشأة الأطفال لإبراز خاصية القسر. فالتربية تفرض على الطفل طرق معينة في الرؤية والتصرف والشعور وهو ما لم يتوصل إليه عفوي.

إجباره على الأكل بطرق معينة، وعلى النوم بانتظام والهدود والنظافة والطاعة، وفيما بعد أخذ المحيط بعين الاعتبار. واحترام التقاليد والعادات وعلى العمل.....

القسر المفروض على الطفل من طرف الوسط الاجتماعي والهادف إلى تكوين الطفل على صورته (الأسرة والمربين وسطاء فقط).

تتحدد الظاهرة إضافة إلى خاصيتي الانتشار والقسر بخاصية الموضوعية إذ إن طرق التصرف والتفكير والشعور معرفة خارج الذات الفردية أي في القوانين والعادات، كما أن الوقائع الاجتماعية كالوقائع الطبيعية عبارة عن أشياء حقيقية موجودة خارج الفرد " إنها الأشياء التي لها وجود خاص بها. لا يستطيع الفرد تغييرها، فهو يأخذها بعين الاعتبار لكي تكون الظاهرة اجتماعية يجب على مجموعة كبيرة من الأفراد دمج فعلها وهذا الدمج سوف يؤدي إلى إنتاج جديد.

المبدأ الأساس في فهم الوقائع الاجتماعية يتمثل في كونها حقائق موضوعية ومن هذا المفهوم انطلق علم الاجتماع.

والظاهرة الاجتماعية حسب دوركايم هي ضرب من السلوك العام واتجاهات وأساليب وأوضاع يصب فيها الإنسان تفكيره وأعماله وهي ليست من صنع الأفراد ولكنها من صنع المجتمع وهي عامة ولها كيان خاص بها مستقل عن الصور التي تتشكل منها في الحالات الفردية ومزودة بقوة ملزمة مجبرة.

انطلاقاً من هذا العريف يمكن استخلاص خصائص الظاهرة الاجتماعية:

1- الظواهر الاجتماعية تتميز عن باقي ظواهر العلوم الأخرى ومستقلة عنها كونها

إنسانية تنشأ بنشأة الاجتماع الإنساني.

2- كون الظاهرة إنسانية فهي تتميز بكونها عبارة عن قوالب وأساليب وأوضاع

للتفكير والعمل الإنساني.

3- الظاهرة الاجتماعية تتميز بكونها خارجية عن الأفراد وبكونها شيئية، بمعنى أنها

توجد خارج الشعور الفردي باعتبارها حقيقية موضوعية ومستقلة عن وعي

الأفراد وتنتقل عبر الأجيال ولا تزول بزوالهم أو بعضهم لكونها سابقة في الوجود على الوجود الفردي (أسبقية المجتمعي عن الفردي). خضوع الأفراد لقوال ونظم ومثل اجتماعية سابقة عن الوجود الفردي في الحياة.

4- أسبقية الظاهرة عن الفرد في الوجود يجعلها ليست من وضعهم لذلك تتميز بالتلقائية وهي من وعي العقل الجمعي.

5- الظواهر الاجتماعية والمقصود بذلك الانتشار داخل المجتمع. وتتجلى العمومية في :

- 1- انتشارها في محيط مجتمع معين في جميع هيئاته و طبقاته في مدنه وقراه.
- 2- أن يكون انتشارها في طائفة من المجتمعات المتشابهة من حيث الظروف الطبيعية والمفولوجية والاجتماعية.
- 3- أن يكون انتشارها في نماذج اجتماعية مختلفة.
- 6- تتميز بالجبرية والإلزام أي أنها تفرض نفسها على الأفراد ويتحتم عليهم أن يراعوها ويوجهوا أعمالهم صوب ذلك سواء وافق ذلك رغباتهم الفردية أم لا،
- 7- وقد حدد دوركايم منهجه التفسيري لدراسة الظواهر الاجتماعية مؤكدا على وجود علاقة سببية بين الظواهر المرصودة. ويقوم هذا المنهج على إبعاد كل ما هو ذاتي أو تأملي واستعمال التجريب، وتكرار الاختبارات والاحتكام إلى الجبرية الاجتماعية (المستندة على الحتمية والعمومية والضغط الخارجي والعقاب الخ) والابتعاد عن التصورات المسبقة والمعارف أو الأحكام الشائعة وفي هذا الصدد يقول دوركايم أن طريقتنا طريقة موضوعية : ويقول في موضع آخر " إن القاعدة التي تنطلق منها لا تفترض أي تصور ميتافيزيقي ولا تتضمن أي نظر تأملي في كنه الموجودات. إن ما تتطلبه هو أن يضع عالم الاجتماع نفسه وضعا فكريا شبيها بالوضع الذي يكون عليه الفيزيائيون والكيميائيون حينما ينخرطون في استكشاف منطقة مجهولة في ميدانهم العلمي، فعلى عالم الاجتماع بدوره وهو يحاول النفاذ إلى المجتمع أن يعي بأنه ينفذ إلى عالم مجهول. وعليه أن يشعر بأنه أيضا إزاء وقائع غير منتظرة مثلما كانت عليه وقائع الحياة قبل أن تتشكل البيولوجيا كعلم".

باختصار يقوم المنهج الدوركايمي على الخطوات التالية:

-التعريف بموضوع الدراسة، وملاحظة الظواهر من خلال إعادة بناءها علميا وتنظيم الوقائع في ضوء استكشاف العلاقات التي تتحكم في المتغيرات المستقلة والتابعة، والالتزام بالخاصية العلمية للفرضية السوسيولوجية.

يقوم المنهج الوضعي على منهجية استقرائية تجريبية وتنطلق من مشكلات اجتماعية وفرضيات علمية والاستعانة بالتجريب التكراري والترابطي واستثمار الإحصاء الرياضي واستخلاص القوانين والنظريات .

انطلق دوركايم في تحليله للانتحار من نتيجة أساسية هي أن الانتحار ظاهرة اجتماعية وليس نفسية أو عضوية ويرتبط بتقسيم العمل في المجتمع الرأسمالي الصناعي، وبالتالي يتحد بحسب درجة الاندماج في الجماعة والعلاقة بهما سببية.

يمكن القول بأن كل تحليلات دوركايم تقوم على رفض لكل معطى قبلي priori وعلى الاستخدام المنظم للإحصاء.

فقد انطلق من فحص التفسيرات الشائعة عن الانتحار من قبيل الاختلالات العقلية، العوامل الكونية والمناخية والتقليد، والوراثة والعرف... الخ . يوضح فرضية كون المحيط الاجتماعي المحيط بالفرد هو الذي يحدد انتحاره . فقام بفحص السياقات الدينية والعائلية والسياسية والاقتصادية وقارن الأوساط الحضرية والقروية والمناطق والبلدان والحقب فوصل إلى خلاصة كون الانتحار في المدن أكثر منه في القرى، وعند العزاب أكثر من المتزوجين وأكثر عند المتزوجين بدون أبناء، وأكثر في حالة غياب الدين إذا كان الفرد جزءا من جماعة دينية، كذلك يقل انتحار الفرد عندما تكون بلاده في حالة حرب أو في أزمة اقتصادية أي أن الروابط الاجتماعية تعيد اللحمة في الأزمات.

وصل دوركايم إلى أن العائلة والدين والمجتمع السياسي هي مقدار من الزمر الاجتماعية التي تحدد هوية الأفراد، وأنه كلما ضعفت هذه الزمر بشدة فإن الفرد يفقد نقاط استناده.

أما دراسة الدين (من خلال كتابه الصور الأولى للحياة الدينية) لاحظ دوركايم بأن المقدس هو القاسم المشترك بين جميع العقائد، فالمقدس هو نتاج الحياة الجماعية وبالتالي

فالدين هو المجتمع فهما مترادفان، ويعني ذلك أن المجتمع هو الذي يغرس ويولد طبيعة التفكير الديني لدى الفرد ومن ثم فالأشكال الدينية هي تعبيره عن الأشكال الاجتماعية.

فالدين هو مجموعة من المعتقدات والممارسات المرتبطة بالمقدس وتتميز بالطابع الروحي المجرد وقد وصل دوركايم إلى هذه الخلاصات من خلال دراسته الاثنولوجيو لقبائل بدائية بكل من استراليا والهنود الحمر بأمريكا (فجد كما أشرت سابقا إلى القاسم المشترك الذي هو المقدس أو الطاقة العقائدية (المانا) ويعني كل هذا أن المقدس أو المعبود هو المجتمع. لأنه يجبرنا خارج أنفسنا ويلزمنا بالتوافق مع مصالح أخرى غير مصالحنا وهو الذي علمنا كيفية التحكم في الشهوات والغرائز وأن نضع لها القوانين لإخضاعها لغايات أكثر سموا.

وعرض من خلال عمله تقسيم العمل 1893 de la division du travail الذي هو في الأصل أطروحة دكتوراه) فكرة مركزية حول تطور المجتمعات مفادها أن المجتمعات تنتقل تدريجيا تحت تأثير تقسيم العمل من التضامن الآلي إلى التضامن العضوي، فالآلي يقوم على كون الروابط الاجتماعية تتأسس على التشابه والتماثل بين الأفراد ويمتص الوعي الجماعي ووعي كل فرد. في حين في المجتمع الصناعي حيث التضامن العضوي يقوم الترابط على التعاقد وعلى تحديد ووعي الأفراد وانتشار الفردانية).

ففي المجتمع القديم حيث التضامن الآلي يمكن أن يحل بعض أفراد المجتمع محل بعضهم الآخر، ووعيهم بكامله مهموم بالأخلاق، والمعتقدات الجماعية على عكس المجتمع الجديد حيث التضامن العضوي فأفراده متميزون بشكل